قدسية فلسطين عند المسلمين

حسن سعيد الكرمي

تعني كلمة « مقدس » ، حسب القواميس المعروفة، واحدا من المعاني الثلاثة التالية : « ما هو مكرس لخدمة الله ولعبادته ، ما هو مكرس ، او مزعوم انه مكرس لهدف غير ذاتي ، ولمقصد روحاني ، وما هو متعلق أو مرتبط بشخص او بشيء له قداسته ، واخيرا هو الذي تعتبره ، او تعترف به،سلطة او تقليد ديني ما انه مقدس». فالمعنى ، اذن ، له مدلول تاريخي وليس مجرد نتيجة نظرية جامدة . والعالم مقسوم ، في الاديان المعروفة ، الى قسمين لاحدهما وزن خاص ، وهو القسم المقدس . وما يميزه عن القسم الاخر ، غير المقدس ، هو الطقوس والعبادة والمحرمات وغيرها من الاجراءات الدينية وبامكان الشيء ان يكون مقدسا بالاستمرار او بالارتباط . وقد جاء في كتاب و. ل. كنغ « المقدمة الى الاديان » (نشر هاربر ، ١٩٥٤ ، ص ٣٧) « كانت الاديان ، في كل مراحل تطورها ، تبني اماكن العبادة وصروح التقديس بالقرب من الاماكن المقدسة او فيها.وكانت هذه المباني ، تكتسب ، احيانا ، قداسة بحد ذاتها . اذ ليس كل كنيسة او جامع او كنيس او معبد مبنيا على مكان كان مقدسا من قبل . بل أن مجرد تشييد المبنى يعطي المكان صبغة دينية ربما لم تكن موجودة من قبل . الا ان عددا كبيرا من المباني المقدسة انما اقيم على اراض كانت بالفعل مقدسة بالنسبة الى طائفة ما : كأن يكون المكان موقع مولد مؤسس الطائفة او موقع عمل او اعمال خارقة له ، او محل حصول حدث تاريخي مهم للطائفة ، او يكون المكان مرتبطا بحياة او اعمال رسول او قديس او ولي . والقدس ، المعروفة باسم المدينة المقدسة عند المسيحيين واليهود والمسلمين ، مثال ممتاز على ذلك » . فقد امدت القدس فلسطين كلها بالقداسة ، بالارتباط والجوار . لم يكن لموسى ، مؤسس اليهودية ، اي ارتباط بالقدس . ولكنه ، ولانه كان زعيما يهوديا ولان داود اختار القدس عاصمة له واختارها سليمان مدينة للهيكل ، وبفضل العلاقة بين هؤلاء القادة اليهود الثلاثة ، كانت القدس مدينة مقدسة لليهود طيلة تاريخهم . وقد يهب الربط التاريخي او الاسطوري مكانا او موقعا او مدينة او ربما بلادا بقداسة مماثلة . ولا نحتاج الى امثلة على ذلك . فهو أمر شائع في امم واديان كثيرة . وتعتبر « ارض الميعاد » مقدسة احيانا لان اليهود القدامى آمنوا ان الله وعد ارض كنعان لابراهيم ولذريته . ولا تتطلب « قداسة » كهذه وجود مبان او اثار قديمة او حتى بقايا ومخلفات دينية . وفلسطين ، الارض المقدسة ، «مقدسة» لليهود ، مع انهم انقطعوا عن اقامة اية صلة مادية ملموسة بها منذ القرن الاول للميلاد ولفترة طويلة جدا . فقد زال وجودهم الديني بها تماما. بينما يختلف الوضع بالنسبة للوجود الديني الاسلامي او المسيحي ، فقد احتفظ الدينان بارتباطاتهما التاريخية والاسطورية باستمرار ، وهي ارتباطات دعمها وقواها الوجود الفعلي الاسلامي والمسيحي ووجود الاثار والمباني الدينية .

ويمكن ان ينشأ التقديس عن واقع قومي ما. وهذا ما حصل لفلسطين اسلاميا . فمع ان الاسلام ، في اوائل عهده ، لم يعتبر فلسطين بكاملها مقدسة بشكل خاص ، عاد فاعتبرها كذلك نتيجة للحروب الصليبية التي جعلت المسلمين يمدون رقعة قدسية بعض الاماكن في فلسطين الى فلسطين بأكملها ، ودعم ذلك المد ، فيما بعد ، بفعل التحدي